العمارة والبيئة

قبل ان استطرد في الكتابة عن هذا البحث اجد الامر في حاجة الى توضيح وتعريف لثلاثة الفاظ وردت في عنوان البحث وتتصل بلب الموضوع ، وشرح مفهومها الذى بنينا عليه كتابتنا ، وهى : البيئة ، العمارة ، العروبة ٠

اما البيئة فيمكن شرحها بانها المحيط المادى والمعنوى والروحى والجو الذى يعيش فيه الناس من الافراد والجماعات من البشر ٠ وهو نتاج عوامل شتى تؤثر على حياة هؤلاء الافراد والجماعات منهم صغيرة كانت أم كبيرة ، قبائل كانت أم أمما أم دولا ، وما تتميز به من ملامح وتقاليد واساليب خاصة بكل منها ، وقد تتفق مع ما تتميز به جماعات اخرى او تختلف عنها في قليل او كثير ٠

والبيئة كما هو معروف لفظ جامع لعدة نواح من ذلك الجو او المحيط الذى يعيش فيه الجماعات من البشر ، منها : البيئة الجغرافية ، وهى تشمل البيئة المناخية، والبيئة الجيولوجية ، ثم البيئة السياسية ، وهى تشمل الاوضاع التى فيها الجماعات المختلفة داخل اطار الدولة الواحدة ، ثم علاقة الدول بعضها

الدكتور فريد شافعي

العربية الاسلامية

بالبعض الاخر ، سواء كانت اتصالات سلمية او احتكاكات غير سلمية · ثم البيئة الدينية ، حيث كانت المعتقدات الدينية تلعب دورها الخطير في توجيه حياة الناس افرادا وجماعات · ثم البيئة الاجتماعية والبيئة الاقتصادية التى كانت تتصل وتخضع كثيرا لتاثير البيئات والعوامل الاخرى للبيئة العامة ، وكل هذه العوامل والبيئات العامة والخاصة كان لها دورها في تكوين الطابع والتقاليد المعمارية بطريقة مباشرة او غير مباشرة ، وبدرجات تتفاوت شدتها وقوة وضوحها ·

اما الصفة العربية في تصورنا ، وبعيدا عن الاعتبارات السياسية ، فهى تشمل حضارة الافراد والجماعات والاقطار التى ادخلها العرب تحت لواء الاسلام وبخاصة ان كثيرا من اولئك العرب قد اتخذ من تلك الاقطار اوطانا ثانية لهم وصاهروا اهلها وامتزجت الدماء العربية بدماء سكانها الاصليين ، ومن ثم انتشرت اللغة العربية في ربوعها واصبحت هى اللغة التى يتعاملون بها في حياتهم الخاصة والعامة ، وذلك جنبا الى جنب مع اهل البلاد القدامى سواء الذين اعتنقوا الاسلام او من بقى منهم على دينه ·

ويعزز ذلك ان كثيرا من العلماء في العصر العربى كانوا من اصول غير عربية ولكنهم وضعوا باللغة العربية مؤلفات تعتبر من امهات المراجع العربية في اللغة والدين والعلوم من طب وصيدلة وفلسفة الى غير ذلك • وكلهم ظهروا وعرفوا وذاع صيتهم من بعد الفتوح العربية وانتشار الاسلام ولغته العربية في ربوع الاقطار التى ولدوا وترعرعوا فيها ، بل ان منهم من نزح عن بلاده الاصلية ليقيم فترة او بقية حياته في اقطار عربية اخرى •

ولا ندرى والحالة هذه لماذا يصر بعض الناس على تسمية العصر العربى بالعصر الاسلامى فحسب ، بزعم ان جنسيات غير عربية الاصل قد ساهمت في اقامة صرح الحضارة التى انبثقت بفضل الاسلام ، مع انه نزل اول ما نزل على العرب وباللغة العربية التى اختارها الله له ، وبفضل العرب واخلاصهم واقتناعهم بذلك الدين وتفانيهم في نشره فتمت الفتوح العربية لتلك البلدان وتم نشر الاسلام بين اهلها وربوعها •

ومن جهة اخرى فاننا لا ندرى لماذا سلم الناس بان تسمى الحضارة في بلاد الاغريق وفي آسيا الصغرى والشام ومصر وشمال افريقية بل وفي بلاد اوروبا على اختلاف جنسياتها والتى اخضعها الرومان تحت حكمهم بالحضارة الرومانية ، مع ان اهالى تلك البلاد وهم غير رومانيين قد ساهموا بدون اى شك باكبر قسط في اقامة صرح الحضارة الرومانية • ثم حدث نفس الشيء في الفترة البيزنطية التى اعتمد البيزنطيون فيها على الانتاج العظيم والجهود الجبارة التى ساهم بها اهالى المستعمرات البيزنطية ومنهم عرب الشام والعراق في قيام الحضارة البيزنطية •

ومن المتفق عليه بين علماء الاجناس والشعوب ان العرب هم من اصل سامى انتشر منذ الاف السنين في شبه الجزيرة العربية وفي الشام والعراق ، اذ ان الوطن العربى لم يكن قاصرا على شبه الجزيرة العربية فان البيئة الاقليمية فيها كانت قاسية في بقاع عديدة منها ، وكانت الموارد في كثير منها لا تكفى لاعداد البشر التى كانت تتزايد بمرور الزمن ، وتتزايد معهم حاجاتهم من مقومات العيش والحياة وامكانيات الاقامة والاستقرار ، ولم يكن هناك حل لهذه المشكلات المتزايدة الا بالتنقل والهجرات المستمرة الى مواطن تتوفر فيها كل او بعض تلك المقومات والامكانات ، وكانت بقاع شمال شبه الجزيرة العربية هو المنطلق الطبيعى الذى يملكن الوصول اليه بطريق البر ، كما كانت مصر من الجهة الاخرى مجالا آخر لهذا الانطلاق على الرغم من وجود البحر الاحمر الذى ما كان له ان يقف مانعا وسدا في طريق الهجرات عبره ، وبخاصة امام قوم تلح عليهم متطلبات الحياة والعيش ، ولا شك ان قوة هذا الدافع جعلتهم كما جعلت شعوب الارض منذ عشرات الالوف من السنين يقتحمون مصاعب واهوالا اكبر من عبور البحر الاحمر من ضفته الشرقية الى الغربية • كذلك ليس هناك من شك ان محاولات عبور البحر ثم البر حتى وادى النيل لم تكن سهلة ميسرة ، ولم تنجح الا بعد تضحيات وتجارب مريرة بلغت الناس اخبارها ، ورسمت لهم السبل التى توصلهم الى اهدافهم • ويؤكد هذا ما حدث من ايام الرسول عليه السلام عندما اوفد الرسل الى نجاشى الحبشة يدعوه الى الاسلام ، ثم ايفاده جماعة

PLAN I

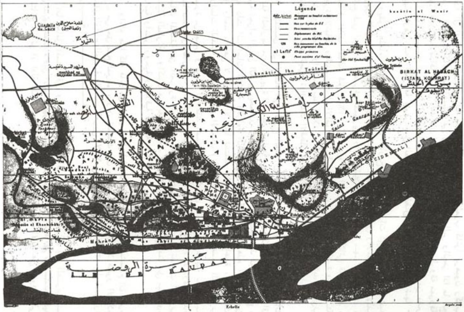
Légende
al Lafif
Citadelle du Caire
قلعة صلاح الدين (قلعة الجبل)
الشمال
N
S
مقابر
TOMBEAUX
مشهد السيدة نفيسة
Sayyidah Nafisah
kanâtir Ibn Toûloûn
قناطر ابن طولون
ain Ibn Toûloûn
عين الصيرة
Ibn Toûloûn
القطائع
مسجد الفتح
دار أبي الهول
بئر ابن طولون
BIRKAT AL HABACH
(ISTABL KOURRAT)
بركة الحبش
(اصطبل قرة)
KOUBA
bosâtin al Wezir
Saint Georges
OCCIDENTAL
الأرض الصفراء
Qanâtir al Khoukhkhah
قناطر الخشاب
Mokrân
ILE DE RAUDAT
جزيرة الروضة
Echelle

من المسلمين الى الحبشة فبقوا فيها فترة من الزمن حتى تم النصر للرسول والمسلمين فعادوا الى اوطانهم . وكل ذلك يثبت خطأ الزعم بان العرب كانوا يرهبون ركوب البحر ، فانهم ما كانوا يتقاعسون عن ركوب الصعاب وعبور البر والبحر اذا ما الح عليهم الامر وبالاضافة الى كل ذلك فان ارض شبه جزيرة سيناء كانت مطروقة معروفة منذ آلاف السنين ، يعبرها الناس والجيوش في هجرات او حملات من مصر واليها ، وهى البلاد المعروفة بتوفر سبل العيش فيها بفضل نيلها وخصوبة ارضها .

ويقول علماء الاثار والاجناس ان التاريخ قد وعى هجرات كبيرة خرجت من شبه الجزيرة العربية الى اقطار العراق والشام منها : هجرة الاكاديين والاشوريين في الالف الرابع قبل الميلاد ، وهجرة العموريين والكنعانيين الذين انحدر منهم الفينيقيون ، وذلك في الالف الثالث قبل الميلاد ، ثم هجرة الاراميين في الالف الثانى قبل الميلاد ، وهجرة الانباط والتدمريين في الالف الاول قبل الميلاد ، ثم هجرة المناذرة والغساسنة في القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد ، ثم الفتوح الاسلامية التى تمت بايدى العرب المتدفقين من شبه الجزيرة الى تلك الاقطار شرقا وغربا .(١)

ونقتبس من الاستاذ ابى الفرج العش ايضا الفقرة التالية(٢) : « هذه الموجات الهائلة الخارجة من الجزيرة العربية السامية ، جعلت اغلب السكان في الشام والعراق وبقية اجزاء الوطن العربى يحملون دم وصفات العروبة الاصيلة منذ فجر التاريخ ، ولقد دلت الدراسات الاثرية وقراءة النصوص القديمة ان لغات هذه الشعوب من اصل واحد ، وهى لا تختلف الا كما تختلف اللهجات المحلية المتباعدة ، كما دلت الدراسات العلمية المتعلقة باصل الانسان (الانثروبولوجيا) ان هذه الشعوب منحدرة من جنس واحد . لذا فقد اصبح من المؤكد ان هذه البلاد عربية بلحمها ودمها منذ فجر التاريخ ، وما كانت الحركة العربية الاسلامية الاخيرة الا اوضح هذه الموجات المنبثقة من الحزيرة العربية واقواها ، غسلت البلاد من نفايات الشعوب الدخيلة الطارئة ، واكدت عروبة المنطقة ، وخلقت حضارة رائعة قامت على مبادىء انسانية واسس روحية واخلاقية فاضلة » .

وامام هذا كله فانه من الواجب علينا ان لا نتقبل ببساطة واستسلام ان يحرم العرب من حق منح لغيرهم ، وان نتمسك بان يسمى العصر الذى تلا ظهور الاسلام واتمام الفتوح العربية بالعصر العربى الاسلامى ، وان تسمى حضارته بالحضارة العربية الاسلامية .

اما تحامل المستشرقين والاغراق الذى كانوا فيه وفي الادعاء بان العرب لم تكن لديهم حضارة قبل الاسلام فهو محض افتراض بل وافتراء ، فانهم لم يستندوا فيه الى نتائج حفائر او ادلة علمية . اما انهم اعتمدوا في اول الامر على جهود اهالى

---

(١) و (٢) ابو الفرج العش : آثارنا في الاقليم السورى ، ص : ١٠ و ١١ .

البلاد التى فتحوها فحسب ، فقد حدث ذلك للحضارة الهلينستية التى انتشرت بعد فتوح الاسكندر ثم من بعدها الرومانية ثم البيزنطية ــ اى ان الحضارات كلها تقريبا قد نسبت في كل عصر من العصور الى اصحاب الحكم والسطوة فيه ، واذن فمن الانصاف العلمى البعيد عن التحيز لبعض الاقوام او الوقوف ضد آخر ان يعطى العرب حقهم ، وان تسمى حضارتهم وعمارتهم بالعربية ، وبغير محاورات او محاولات للهروب من الحقائق التاريخية المعروفة •

اما لفظ العمارة ودلالته فقد عانى الكثير من التعقيدات في توضيح معناه ، ولكننا نجده بسيطا تكفيه كلمات قليلة ، ويمكن القول بان لفظ العمارة يعبر عن كل ما فعله ويفعله الانسان ليوفر الراحة الجسمية والحسية لنفسه ولمن • حوله ، وان الشعور بالامن ثم الاحساس بالجمال هما من اهم عناصر تلك الراحة • ومهما كان شكل العمل الذى انتجه الانسان او مستواه من حيث الخشونة او الترف او البساطة او الاناقة والزخرف فانه عمل معمارى لا شك فيه •

ويمكن ان نضرب مثلا لذلك التعريف ان الانسان قد انتقل من الطور الوحشى الى حافة البداوة ثم الحضارة من بعدها عند اول محاولة له لتمهيد ارض كهف اوى اليه ، ثم جعل له بابا ولو من صخرة تحميه ، او اتجه الى بناء مأوى له من فروع الشجر في مستوى عال من احدها • وهذه المحاولات تعد اعمالا معمارية في اولى مراحلها ، وهى تختلف عما يفعله النحل بوجه خاص من خليات ذات شكل هندسى منتظم، وعن ما يبنيه النمل وغيره من الحشرات والحيوانات الصغرى والكبرى، ذلك ان الانسان لم يكتف بتلك المراحل البدائية الاولى بل اخذ يتابعها بالتغيير والتعديل والابتكار في حلقات ومراحل من التطور تزداد سرعتها او تقل حسب الامكانيات التى تتوفر لديه ، وحسب الظروف والعوامل التى تحيط به ، او بمعنى آخر حسب البيئة التى يعيش فيها • اما ما فعله وما يزال يفعله سائر المخلوقات فما هو الاعمل غريزى ونظام لا يتغيران مهما مر عليهما من ازمان •

واذن فان هناك من الصلات البالغة القوة بين العمارة والبيئة مايجعلنا نعد العمارة اصدق مرآة واعظم سجل يوضح اثر البيئة على الحضارات المختلفة التى سار الانسان في مدارجها ومستوياتها من الطور الوحشى الى عصورنا الحاضرة والمستقبلة • او بمعنى آخر فان العمارة يمكن ان تعد من اولى العلامات ، بالاضافة الى محاولات الزراعة الاولى وغيرها ، على انتهاء الطور الوحشى للانسان وبداية الطور البدائى ذلك انه منذ اللحظات الاولى التى فكر وحاول فيها ان يمهد الارض التى يرقد عليها داخل كهف او ان يعد مرقدا بين غصون الاشجار لكى يوفر لنفسه قسطا من الراحة الجسمية فانه قد ظهرت عليه اول اعراض العمارة ، ثم اخذت الاعراض في النمو والوضوح عندما فكر في مزيد من الراحة الجسمية والحسية عندما اتجه الى تزيين مسكنه بابسط المواد او عمل خطوط او وضع بعض الاغصان متشابكة في شكل زخرفى بدائى ثم اخذت تتوالى محاولاته في ابتكار الوسائل المعمارية من حيث التصميم واستعمال المواد وتشكيلها فيما يوفر له ما يهدف اليه من الراحة وبالقدر الذى توفره له البيئة التى تحيط به •

ولم تخرج العمارة العربية في تطوراتها عن ذلك المحيط الازلى ، وكانت تسير في حلقات من التطور توجهها عوامل البيئة العامة ، منها الرئيسية ومنها الثانوية ، مما جعلها تتصف بطابع عام وسمات ومميزات . تشترك فيها جميع الاقطار العربية والتى اصبحت عربية ، ثم بأخرى محلية يتميز كل قطر منها عن الاخر بخصائص تميزه عن غيره او يشترك في بعضها مع قطر او اكثر من الاقطار المجاورة له .

ورب سائل يتساءل عما اذا كان هناك عمارة عربية قبل الاسلام تدعونا الى استعمال عنوان « العمارة العربية الاسلامية » وجوابنا عليه انه كانت هنا عمارة عربية في العصر البيزنطى وعمارة عربية في العصر الرومانى ، وادلتنا على ذلك كثيرة منها معبد بعلبك فانه على الرغم من العناصر والتفاصيل الرومانية فانه يمتاز من حيث التخطيط والتكوينات المعمارية بعدة مميزات وظواهر جديدة لا توجد في البلاد الايطالية او في بلاد الاغريق في العصر الرومانى ، اما آثار البطراء فانه على الرغم ايضا من العناصر والتفاصيل الرومانية فان التكوينات والتصميم يتضح فيها بكل جلاء ان هناك طبعا واذواقا محلية وايدى من اهل البلاد لهم الفضل في انتاج تلك القطع المعمارية التى نحتت في وجه الجبل .

ويتجلى ذلك بكل وضوح ايضا في الاثار المنحوتة في الصخر ايضا في منطقة مدائن صالح في شمال المملكة العربية السعودية ، فقد طورت العناصر والتفاصيل ذات الاصل الرومانى الى عناصر وتفاصيل بطريقة خاصة لايمكن القول بانها رومانية البتة ، هذا الى ما اضيف اليها من عناصر وتفاصيل بعضها فرعونى الاصل وبعضها اشورى واخامينى ، ونرجو ان نعود الى اعداد دراسة وافية عن هذا الطراز العربى الذى يسبق الاسلام . هذا بالاضافة الى ما ألمحنا اليه من قبل ان العمارة البيزنطية قد ارسى قواعدها اهالى منطقة شبه الجزيرة العربية وكان اكثرهم من اصل عربى عريق .

عمارة المدن والتحصينات في العصر العربى الاسلامى :

من البديهى ان يعد بناء دار الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة اول حدث معمارى منذ نزول الوحى على الرسول الكريم . وهى تلك الدار التى اعدت لاقامة آل بيت الرسول ، ووضعت الحجرات في جانب من فناء كبير كان يجلس فيه الرسول تحت ظلة في جانب منه مع اصحابه ويقيم فيه الصلاة للفرائض ، عندما كانت تحين أوقاتها ، وكانت تقام فريضة الجمعة في مسجد قباء ، ثم تطور الأمر الى ان اصبح الفناء مسجدا وبيوت آل البيت ملحقة به .

وكان من الممكن ان نبدأ بتلك الدار في مستهل الحديث عن العمارة العربية الاسلامية ، ولكننا وجدنا من المفيدان نبدا بالمدن العربية والتحصينات فهو موضوع يعد اعم وأشمل ، اذ كانت كل مدينة منها تقوم على مجموعات من انواع العمائر التى لا غنى للناس عنوا في حياتيم ، ذلك منذ ان ربط الاسلام بينهم وجعلهم يتدفقون على

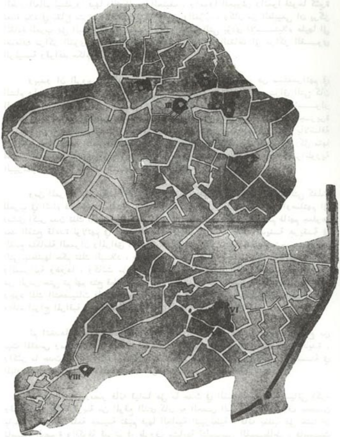

● الفسـطاط : المنطقـة التى كشــفت عنها الحفــائر

اقطار العالم لينشروا فيها ذلك الدين الحنيف ، واعدوا الجيوش واتموا فتوحا كثيرة لعدة بلاد في بقاع مترامية الاطراف في الشرق والغرب ، وكان من الطبيعى ان يركز القادة العرب على البقاع ذات الاهمية الاستراتيجية التى يؤدى الاستيلاء عليها الى اضعاف مراكز القوى المعادية ، وحتى يصلوا من تلك النقاط الى مراكز القوى الرئيسية وقواعد حكام البلاد ·

ويبدو ان الروم او البيزنطيين كانوا يركزون في دفاعهم عن مستعمراتهم في الشام وآسيا الصغرى على تحصين الحدود بينهم وبين منطقة العراق التى كان الساسانيون يحكمونها هى وتابعتها فارس ، فاقام الروم التحصينات من الاسوار والقلاع ، غير انهم لم يعنوا بتأمين حدودهم فى الجنوب اى جهة شبه الجزيرة العربية ، والذى كان القطاع الشمالى منها تابعا لهم وتحت حكمهم ، هذا بالاضافة الى العرب في العصر السابق للاسلام في شبه الجزيرة كانوا قبائل شتى تحتل كل منها قطاعا خاصا بها ، ولم يكونوا مترابطين في دولة تهتم لها وتخشاها الامبراطورية البيزنطية ، والتى كانت ذات سطوة وقوة طاغية في ذلك الوقت ·

ومن المعروف ان منطقة الشام كانت عامرة بالمدن الصغيرة والكبيرة التى كفلت للعرب في اثناء فتوحاتهم سلسلة من المحطات على الطرق الرئيسية التى اوصلتهم الى دمشق اكبر مدن تلك المنطقة الهامة من املاك دولة الروم (٣) ، ومنثم فانهم جعلوها بعد الفتح قاعدة لولاتهم في عصر الخلفاء الراشدين ، اذ كانت مدينة عريقة في القدم متكاملة العمران والمرافق الحيوية ، وكانت تحتل موقعا صالحا منجميع الوجوه التى يتطلبها حكم تلك البلاد ، وذلك من حيث البيئة الجغرافية والاقتصادية والعمرانية وغيرها ، وكانت مزودة بالاسوار والتحصينات التى قاومت العرب فترة من الزمن حتى تم لهم فتح قطاع منها عنوة واستولوا على القسم الباقى سلما (٤) ومع وجود تلك التحصينات فان معاوية قام وهو وال على الشام بتحصين الساحل الشامى واقام ابراج المراقبة ، وكان ذلك في عام ١٩ هـ (٦٤٠ م) (٥) ·

ثم اتخذها معاوية بعد ذلك قاعدة للدولة الاموية بعد ان وجدها اصلح من بيت المقدس ومن غيرها ، وبذلك اصبحوا في غنى عن تخطيط وبناء مدن جديدة ، واكثر ما حدث في العصر الاموى ان شيد بعض الخلفاء الامويين قصورا محسنة في البادية او مدنا صغيرة لاتتجاوز ان تكون بمثابة ضواح للمدن الكبيرة ·

اما في العراق ومصر فانه قياسا على ما حدث في الفسطاط ، كما سياتى ذكره وقيامها على بقعة قريبة من الموقع الذى كان به الحصن البيزنطى المعروف بحصن بابليون ، وكان قلعة حصينة تقيم فيها الحامية البيزنطية ، فانه يغلب على ظننا أن تاسيس البصرة والكوفة قد تم في ظروف مشابهة لتأسيس الفسطاط ، فاسست

---

(٣) ابو الفرج العش : المرجع السابق ، ص : ٤٦ (٤) البلادرى : فتوح البلدان ، ص : ١٢٨

Matzinger & Wulzinger : DAMASKUS, vol.I : Die Antike stadt; vol. II : Die Jslamische Stadt.

البصرة سنة ١٤ هـ (٦٣٥) وكان ذلك غالبا بالقرب من موقع قلعة ساسانية حاصرها العرب فترة من الزمن حتى تم لهم فتحها والاستيلاء عليها ، وفي اثناء القتال والحصار تبين لهم ميزات الموقع الذى شغلوه بخيامهم في تلك الفترة ، واتضح لهم سهولة الحصول على الماء والمؤن في المناطق المحيطة به ووقوعه على الطرق التى يمكن الوصول منها الى البقاع الهامة الاخرى ، ومن ثم فانهم اخذوا في استبدال البناء بخيامهم • ولذلك فان تخطيط المدينة قد اتخذ طابع المخيمات ، وتكونت المدينة من عدة احياء او خطط خصصت كل منها لقبيلة او بطن او بطون منها شارك افرادها في القتال •

كذلك يغلب على ظننا ان الكوفة اسسها العرب المسلمون فيسنة ١٨ هـ (٦٣٨م) في ظروف مشابهة تماما ليتجهوا منها الى الشمال نحو المدائن عاصمة الدولة الساسانية ومعقل كسرى ملكهم في ذلك الوقت •

واسس العرب الفاتحون مدينة الفسطاط فينفس المكان الذى حطوا فيه رحالهم واقاموا فيه خيامهم عندما بدأوا في حصار حصن بابليون الذى كان يعد اقوى نقطة عسكرية داخل القطر المصرى اقيمت عند موضع استراتيجى حيوى هو نقطة التقاء الطرق الرئيسية التى تصل الوجه البحرى بالوجه القبلى • وبفتح ذلك الحصن امن العرب ظهورهم واتجهوا الى الاسكندرية التى كانت معقل الوالى البيزنطى واستولوا عليها بعد جهد كبير بسبب مناعتها وما كانت تاتيهامن امدادات عن طريق البحر ، وبذلك تم للعرب فتح مصر كلها واستتب لهم الامر فيها •

وعاد العرب الى الفسطاط ليقوموا بنفس العمل الذى قام به زملاؤهم فاتحوا العراق في البصرة ثم الكوفة ، فاستبدلوا بسكنهم في الخيام في الفسطاط بناء الدور والمنازل والاسواق والمطابخ (اى المصانع) والمخابز وحوانيت الحرف والصناعات والحمامات العامة الى غير ذلك من انواع العمائر التى لا غنى للناس المستقرين في الحضر لمعيشتهم وحياتهم على المدى القصير والبعيد •

كذلك لا يداخلنا شك كبير في ان المدن الاسلامية الاولى التى قامت مع او بعد الفتوح العربية في شمال افريقية والاندلس وفي فارس قد اسست على نفس الخطوات التى خططت عليها المدن السابق شرحها •

هذا وقد خضعت تلك المدن في تخطيطها لعوامل مشتركة بعضها نابع من البيئة الغربية الاسلامية عامة ، والبعض الاخر منبثق عن البيئة المحلية الخاصة بموضع كل مدينة •

وياتى على رأس العوامل العامة المشتركة لتاسيس المدن العربية مميزات الموقع الجغرافى المختار لبناء المدينة ، اذ كان يراعى فيه دائما توفر المياه وضمان وجودها طوال الوقت او اكثر الوقت ، فكان يختار الموضع على ضفة نهر او على بعد قريب منه حتى يسهل على الناس الحصول على الماء اللازم لهم للشرب والاستعمالات المنزلية والانتاج الصناعى والحركة التجارية ، وكذلك لرى البساتين والحدائق داخل المدينة

والمزارع خارجها ، والتى تمون اهل المدينة بحاجاتهم من منتجات المزارع والمراعى · وكانت الانهار والمجارى المائية من اهم الوسائل للمواصلات بين المدن والاقطار المختلفة لاغراض التجارة وتبادل المنتجات · وكذلك كان يراعى ان يكون موقع المدينة على اتصال مباشر بالطرق البرية الرئيسية بحيث تصبح المدينة مركزا للاتصال السهل ببقية العالم الاسلامى ·

★ ★ ★

وكان المسجد الجامع يحتل موضعا هو بمثابة القلب او المركز الرئيسى للمدينة وتنتشر حوله الاحياء والخطط المختلفة بما احتوته من دور ومساكن واسواق ورحاب وغيرها ، والتى تخترقها وتوصل بينها الطرق الرئيسية والفرعية من شوارع وحارات وأزقة ودروب ، والتى نبتت في المدن الاولى على غير هدى او نظام هندسى مدروس ، فكانت تسير في منحنيات وخطوط مستقيمة ومتكسرة وتتشابك مع بعضها وتسير على تلك الاشكال بين العمائر والاسواق والرحاب كما كانت تقريبا وقت ان كانت المدينة على هيئة مخيمات ·

وكذلك كان قصر الخليفة او دار الامارة التى يقيم فيها الخليفة او الوالى المعين من قبل الخليفة ملتصقا او على بعد قريب من المسجد ، وكان القصر او الدار مقرا للخليفة او واليه ومقرا لدواوين الحكم في نفس الوقت ·

★ ★ ★

ولم يصلنا من اخبار تلك المدن الاولى وبعد الفتح مباشرة وبعد تأسيسها ما يدل على انها كانت محصنة مزودة بالاسوار والابراج للدفاع عنها · ولعل السبب في ذلك ان العرب الفاتحين كانوا على استعداد دائم للحرب والنزال ومواصلة الفتوح لنشر الدعوة الاسلامية ، واستمر الحال كذلك حتى تمت اغلب الفتوحات وبدأت تسنح فرص الاستقرار ، ولعلهم كانوا يعتمدون على الحصون القديمة في أول الامر ، غير ان الامور لم تكن تستتب دائما في بعض بقاع العالم الاسلامى اذ اخذت تنبت هنا وهناك فتن وقلاقل مما دعا الولاة الى اتخاذ الاحتياطات واعداد الاساليب الدفاعية ، من ذلك ان زياد بن ابيه بنى في عام ٣٨ هـ (٦٨٣ م) قلعة زياد في اصطخر ، ثم عرفت فيما بعد بقلعة منصور ·

وزودت المدينة المنورة باسوار تحيط بها في عام ٦٣ هـ (٦٨٣م) ، واحيطت الفسطاط بخندق للدفاع عنها في سنة ٦٤ هـ (٦٨٢م) ، وذلك عندما تعرضت لزحف عبد العزيز بن مروان عليها ·

★ تاريخ الطبرى ، ج ١ ، ص : ٣٤٥٠ ، ★★ المسعودى : تنبيه ، ص : ٣٤٩

★★★ الكندى : القضاة ، ص : ٤٢ ـ ٤٣ ·

وفي سنة ٦٤ هـ (٦٨٤هـ) اسست مدينة شيراز (٥) ومدينة قم على يدى الحجاج ابن يوسف الثقفى في حوالى عام ٨٣هـ (٧٠٢م) ، وهو الذى بنى ايضا مدينة واسط في سنة ٨٦ هـ (٧٠٥م) ، وكانت محصنة ولها ابواب من الحديد .

كذلك لجأ المسلمون الى بناء الحصون والقلاع على الطرق الرئيسية الموصلة الى المدن او على مشارفها او في قلب المدينة ذاتها .

وصفوة القول ان تخطيط المدن الاولى في العصر الاموى قد قامت على اسس متشابهة من حيث نمو كل منها على نظام المخيمات بغير تحصينات وبخاصة في الشرق الاسلامى .

اما في الغرب الاسلامى فليس لدينا من الاخبار الموثوق بها ما يوضح لنا ما اذا كانت المدن الجديدة هناك قد خططت وشيدت على نفس النظم ، غير اننا نميل الى ترجيح انها نبتت وهى مزودة بتحصينات من اسوار وابراج وقلاع تحميها من الفتن والقلاقل التى كان يثيرها اهالى تلك الاقطار الغربية ضد العرب الفاتحين بين الحين والاخر نتيجة لدسائس عمال الدولة البيزنطية التى كانت تحكم تلك البقاع من قبل وتنزعها منها العرب الفاتحون . فمن المعروف ان الامور لم تستقر للعرب في تلك الارجاء الا بعد فترة تقرب من القرنين او تزيد . ويعزز هذا الاحتمال الذى نميل اليه ان اغلب المدن الباقية من العصر العباسى تتميز بالاسوار القوية التى احيطت بها وما زودت بها من ابراج وبوابات منيعة كما سياتى الحديث عنها فيما بعد .

★ ★ ★

ويمكن ان نتصور تخطيط تلك المدن الاولى في العصر العربى الاسلامى مما وصلنا عن مدينة الفسطاط في مبدأ تكوينها وورد في مرجعين رئيسيين من المراجع التاريخية القديمة ، اولهما كتاب الانتصار لابن دقماق ، والثانى كتاب خطط المقريزى. ويعد الاول اكثر تفصيلا في حديثه عن مدينة الفسطاط وخططها وعمائرها بينما كان المقريزى اكثر تفصيلا في الحديث عن حصن القاهرة وعن احياء العاصمة مصر كلها . وقد عنى المستشرق كازانوفا بتتبع ما كتب عن الفسطاط وخططها وبخاصة ما كتبه ابن دقماق ، وجعل ذلك موضوع دراسة وتحليل ووصل منها الى نتائج علمية قيمة تتعلق بتخطيط الفسطاط وما فيها من احياء وخطط وما جرى فيها من تطورات منذ الفتح العربى وخلال قرون تالية ، ثم جمع كل ذلك في خريطة توضح معالمها البارزة وتطور مراحلها الرئيسية (ش : ١)

★ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ج ٤ (١٣٠٩ هـ / ١٨٩٢ م) .

★★ المقريزى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار (١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م) .

★★★ Casanova (P.) : Essai de reconstitution de la ville d'al Foustat ou Misr, Plan III.

(٦) ياقوت ج ٣ ، ص : ٢٤٩ (٧) ياقوت ، ج ٤ ، ص : ١٧٥

كانت الفسطاط عندما ظهرت في عالم الوجود تقع على ساحل النيل في ذلك الوقت ، والذى كان يمتد في خط يصل ما بين محطة مار جرجس على سكة حديد حلوان وبين ميدان السيدة زينب في الوقت الحاضر ، أو بمعنى آخر فانه كان يسير في خط يمر بمحطة مار جرجس ثم ياخذ في الابتعاد شيئا فشيئا نحو الشرق عن سكة حديد حلوان الى ان يبلغ البعد بينهما نحو نصف كيلو متر .

واخذت المدينة من بعد الفتح تنمو وتزدهر وتتكون من عدة خطط او احياء تبدأ من جنوب قصر الشمع وهو اسم اطلقه المؤرخون على حصن بابليون عند محطة مارجرجس ، والذى اصبح خطة من خطط الفسطاط يسكنه العرب والمسلمون والاقباط جنبا الى جنب ، وبه الكنائس والمساجد ، ثم امتدت المدينة نحو الشمال الشرقى بحذاء شاطىء النيل ، ثم زاد انحراف امتدادها نحو الشرق ليصل الى حدود الهضبة المعروفة بجبل يشكر والتى اقيم عليها جامع ابن طولون فيما بعد .

وكانت الفسطاط اذن تضم اول الامر الموقع الذى شيدت عليه المنطقة التى سميت بالعسكر بعد الفتح العربى باكثر من قرن من الزمان ، وكانت تلك المنطقة تسمى في العصر الاموى بالحمراء القصوى ، وبها خطط قبائل بنى الازرق وبنى روبيل وبنى يشكر بنجزيلة ، واكتسبت الهضبة اسم جبل يشكر نسبة الىتلك القبيلة وكان اكثر تلك القبائل من عرب الشام ، وكانوا حمر الوجوه فسميت المنطقة لذلك بالحمراء القصوى . غير ان العمران انحسر عن تلك المنطقة مع مرور الزمن وصات صحراء ثم دب العمران فيها بعد انتهاء العصر الاموى ومنذ بداية العصر العباسى ، وعمرها عسكر العباسيين فسميت لذلك بالعسكر . ...

ويمكننا ان نستنتج ان الخطط التى اقطعت لتلك القبائل وغيرها لم تكن متلاصقة بجوار بعضها ولم تصل الى تلك الدرجة من الازدحام الكبير الذى اخذ يتزايد بالقرب من شاطىء النيل . بل ليغلب على ظننا انها كانت مترامية الاطراف في اول امرها ثم اخذ العمران يتقلص من الاطراف الشمالية والشرقية ليزداد تركيزا في المناطق الاكثر قربا من النيل وبخاصة حول جامع عمرو بن العاص الذى لم يكن يبعد عن الساحل في ذلك الوقت الا بخطوات قليلة ، اى لم يكن يتوسط المدينة كما كان الحال في اغلب المدن والأمصار العربية الاخرى .

كذلك يمكن القول بان كل خطة من خطط الفسطاط كانت تحتوى على مرافقها الخاصة بصورة مصغرة اى من الاسواق ، وهى حوانيت مفتوحة على الطرق العامة ، ومن القيساريات ، اى الاسواق المقفلة ، ومن المطاحن والافران والحمامات والمطابخ اى المصانع اتى يصنع فيها السكر والصابون ، الى غير ذلك . وكانت تنتشر المساجد في تلك الخطط بالاضافة الى المساجد الجامعة التى بدأت بجامع عمرو ، ثم شيد الوالى العباسي جامع العسكر ومن بعده شيد ابن طولون مسجده .

وبالاضافة الى المرافق الخاصة بكل حى من الاحياء فقد كانت هناك مرافق

عامة من تلك الانواع وعلى هيئة مكبرة في قلب المدينة ، وكانت مراكز صناعية وتجارية رئيسية بل عالمية تتعامل بنوع او انواع من المنتجات والسلع ، وذكر المؤرخون اسماء بعضها ، منها : سوق السماكين ، وسوق العطارين ، وسوق القشاشين وسوق الغرابليين · ومنها قيسارية ابى مرة ، وترجع الى ايام عبد العزيز بن مروان وقيسارية ابن ابى مسبح ، وترجع الى ما قبل ايام هشام بن عبد الملك (٧) ، وغير ذلك كثير ·

ويمكن تكوين فكرة عامة مقربة عن تخطيط الطرق التى كانت تتخلل مدينة الفسطاط منذ اول وجودها وذلك مما كشفت عنه الحفريات التى اجريت في جزء منها (ش : ٢) (٨) ، ويتضح منها ان الطرق كانت ضيقة وتتفرع من بعضها على غير نظام معين ، وفي تعرجات لاضابط لها · وكان بعضها ينتهى احيانا بانسداد في نهايته ، فكانها حارات غير نافذة · وكانت تنتشر بينها الدروب التى قد يصل عرض بعضها الى متر واحد ، وكان كثير منها يغلق من طرفيه ليلا لمقتضيات الامن · وكانت الشوارع والحارات مهما بلغت اهميتها غير منتظمة العرض ، اذ كان عرض الواحد منها يتفاوت بين ثلاثة او اربعة امتار على الاكثر في بعض مواضعه وبين اكثر قليلا من متر واحد في مواضع أخرى منه · واذا كان البعض من المشتغلين بالآثار ينسب ما كشفت عنه تلك الحفائر الى العصر العباسى فاننا ان اثبتنا أن كثيرا من الدور التى كشفت تلك الحفائر يعود الى العصر العباسى (٩) ، مما يدل على ان تخطيط المدينة وطرقها كان لا بد وانه كان يسير على نفس النهج من حيث عدم الخضوع لتنظيم هندسى او فكرة تخطيطية معينة ، وذلك منذ اول انشائها ·

وهناك نواح هامة من عمارة الفسطاط عاصمة الديار المصرية لم تسلط عليها الاضواء التى تستحقها من قبل ، وهى التى تتصل بالقلاع والتحصينات الخاصة بالعاصمة في العصور المبكرة من بعد الفتح العربى ·

وقد اشرنا من قبل الى ان المسلمين في الايام الاولى بعد الفتح لم يضعوا في حسابهم عمل مدينة الفسطاط حصينة ذات مناعة ، ولم يكونوا في ذلك معتمدين على حصن بابليون ولم يفكروا في اتخاذه قلعة او مركزا للدفاع كما كان حاله ايام البيزنطيين ، فقد اصبح الحصن داخل خطة قصر الشمع من خطط الفسطاط ، وفقد الحصن اهميته كنقطة حربية تنتفع بها العاصمة العربية الناشئة ، فانه اصبح نقطة خلفية لا امامية ، وذلك بالنسبة لشمال القطر المصرى الذى كانت تاتيه الغزوات من الشمال دائما ومن الشمال الشرقى بالذات ·

---

(٨) ابن دقماق ، ج ٤ ص : ٣٢ و ٣٧ ـ ٤٠ (٩) على بهجت والبير جابرييل : حفريات الفسطاط ، شكل : ٣ (١٠) فريد شافعى : العمارة العربية في مصر الاسلامية ، ج ١ ، ص : ٤٢٧ـ٤٦٠
Creswell : ashort Account of Early Muslim Arch (11) itecture, pp. 111 — 124 — 144 (12) Ibid : pp. 192 — 203.

وبمناسبة الحديث عن قصر الشمع او قصر الروم كما كان يطلق عليه احيانا فان كلمة « القصر » هذه كان فيها معنى الحصن او القلعة ، وكان هذا المعنى واضحا في العصرين الاموى والعباسى الاول • فقد وصل الينا كثير من القصور الاموية في الشام مثل قصر الحير الشرقى وقصر الحير الغربى وقصر المشتى وقصر الطوبة (١٠) واخرى في العراق مثل قصر الاخيضر من العصر العباسى المبكر (١١) ، وكلها محاطة بالجدران القوية المدعمة بالابراج العظيمة ، وزودت جدرانها وابراجها وابوابها بأنواع البدع المعمارية للدفاع مثل المزاغل والسقاطات والشرافات وغيرها •

واشرنا من قبل الى خندق أحاط بالفسطاط حفره ابن جحدم عامل عبد الله ابن الزبير حول المدينة في سنة ٦٤ هـ (٦٨٢م) ليحميها من جند الخليفة مروان بن عبد الحكم وذلك في ايام الفتنة والصراع بين ابن الزبير في مكة وبين الامويين في الشام • ويقال انه حفره في شهر واحد وقام على عمله ثلاثون الف رجل ، وبقى موجودا الى ايام الكندى الذى توفى في سنة ٩٦١ م (١٢)

وجاء لفظ « محرس » في عدة مواضع من كتاب ابن دقماق مثل «محرس عمار» و « محرس بناية » ومحارس اخرى (١٣) ويبدو لنا ان بناء هذه المحارس كان لغرض اقامة جند في نقاط متفرقة من المدينة وحولها لحراستها ، ولم تكن حصونا او قلاعا كبيرة ، ومهما يكن من امر فان تلك المحارس تحمل اسماء ذات طابع عربى خالص يعود بتاريخ اغلبها الى الايام المبكرة من الفتح العربى •

وشيد احمد بن طولون اول حصن للعاصمة مصر الفسطاط بجزيرة الروضة ليأوى اليه هوواهله وكان ذلك فيسنة ٢٦٣ هـ (٨٧٧م) عندما وصل النزاع بينه وبين رجال الدولة العباسية في سامرا الى ذروته ، ولكنه لم يكمل عمله اذ اوقفه ابن طولون عندما بلغه موت القائد الذى كان قد اوفده الخليفة العباسى لتأديبه • (١٤)

ونجح الفاطميون في فتح الديار المصرية ، وبدأ القائد جوهر الصقلى مولى الخليفة المعز لدين الله في وضع اساس الحصن الفاطمى او الطابية كما سماها المؤرخون والتى سماها جوهر بالمنصورية بعد اكمالها ثم بدل المعز اسمها الى « القاهرة » عند مجيئه اليها من افريقية وبعد اتمام بنائها وبناء قصره وثكنات جنده بداخلها • واختار جوهر موقعها على بعد نحو ثلاثة كيلو مترات الى الشمال المنحرف نحو الشرق من العاصمة • ولم تكن موارده في ذلك الوقت تتيح له اكثر من استعمال اللبن لبناء اسوار سميكة واكتفى ببناء ابوابه بالحجر ، واحتوى الحصن على قصور الخليفة وآل بيته ورجال دولته وحاشيته وجنده ، ولم تكن مدينة مثل الفسطاط او العسكر او القطائع التى اتخذ فيها الحكام مسكنهم ودواوين حكوماتهم ، بل كانت

---

(١٣) الولاة والقضاة ، (طبعة بيروت) ، ص : ٦٥ ،، المقريزى ، ج١ ، ص : ٣٠١

(١٤) ابن دقماق ، ج ٤ ــ ص : ٢٣ و ٢٦ و ٢٦ و ٣٦ و ٣٧

(١٥) المقريزى ، ج ٢ ، ص : ١٧٨ ــ ١٨١ •

القاهرة طابية خاصة بالخليفة وحاشيته وما كان يدخلها من الشعب الامن كان يقوم على خدمة سكان الحصن ، يدخلونه في الصباح ويبارحونه في المساء وتغلق ابوابه دونهم حتى الصباح · ثم ان اختيار موقع القاهرة الطابية لم يقصد به ان يدافع عن العاصمة وعن اهلها ، ذلك ان الطريق كان مفتوحا امام الغزاة للوصول الى العاصمة وذلك بالمرور من الصحراء التى كانت في شرق الحصن وتمتد الى العاصمة ، كذلك ما كانت مساحة الطابية الفاطمية التى عرفت بالقاهرة تتسع لالتجاء اهالى العاصمة اليها اذا ما هددها خطر الغزو ، واذن كان الهدف من بنائها هو الدفاع عن الخليفة وعن كرسى الخلافة فحسب ، اما الشعب فترك في الفسطاط التى كان يفصلها عن الحصن فضاء كبير كانت تشغله بركتان معروفتان باسم بركة الفيل الكبرى وبركة الفيل الصغرى ، وهى منطقة اخذت تتضاءل امام زحف الناس تحو مقر الخليفة واخذوا في البناء فيها حتى اتصلت العاصمة بالحصن ومن ثم ادار صلاح الدين الايوبى عندما تولى السلطة على مصر واسس الدولة الايوبية ، نقول ادار على العاصمة كلها بما فيها الطابية الفاطمية سورا عظيما من جميع جهاتها حتى حدها على شاطىء النيل · وكل ذلك قد فصلناه واتينا بالادلة التاريخية والاثرية والمعمارية التى تثبت ان الطابية الفاطمية او القاهرة الفاطمية التى احيطت بهالة عظيمة لا تستحقها جعلت المسئولين في مصر يقيمون الدنيا ويقعدونها للاحتفال بعيدها الالفى على زعم انها كانت مدينة او عاصمة الديار المصرية ، وكان جهدا في غير محله فان هذا الاحتفال الذى سموه « الفية القاهرة » كان مفتعلا واوحى بفكرة مضللة عن عاصمة الديار المصرية التى تعود في تاريخها وتاريخ حضارتها الى ما قبل انشاء الطابية الفاطمية بنحو ثلاثة قرون ونصف القرن، نقول انكل ذلك قدتناولناه في المجلد الثانى من كتابنا : « العمارة العربية في مصر الاسلامية والخاص بالعصرين الفاطمى والايوبى ، واتينا فيه بما لا يدع مجالا للشك على ان العاصمة ظلت هى الفسطاط او مصر كما كانت تسمى ، وان القاهرة كانت قلعة خاصة بالخليفة ، وان الامر ظل كذلك طوال العصر الفاطمى والايوبى الذى فتحت فيه ابواب القلعة الفاطمية واصبحت خطة من خطط مصر الفساط ، بل انها بقيت كذلك طوال العصر المملوكى ·

ويمكن القول بان العاصمة مصر قد اصبحت حصينة محاطة بالاسوار ووسائل الدفاع منذ بداية العصر الايوبى ، وكان ذلك نتيجة لتعرضها لتهديد الصليبيين واتخاذ الديار المصرية ميدانا من ميادين الحروب الصليبية التى كانت مستعرة في الشام وزحفت الى مصر ·

★ ★ ★

وسنعرض في مقال تال بمشيئة الله عمارة المدن والحصون في بقية العالم العربى الاسلامى في الشرق والغرب الاسلاميين ، ونستهله بالحديث عن مدينة المنصور العباسى التى ذاع اسمها في كتب التاريخ والحضارة العربية الاسلامية ، التى عرفت ببغداد وبالمدينة المنورة الى غير ذلك من الاسماء ، ثم ما تبعها من مدن هامة اخرى شيدت في العراق وغيره من بقاع العالم العربى الاسلامى ، ومن الله التوفيق ·